مشروع مكافحة الأمية
على ضوء علم الاجتماع

للأستاذ فؤاد عوض واصف

في العـدد ٥٨٦ من « الرسالة » الغراء كتب الدكتور محمد مندور مقالا تحت عنوان « مكافحة الشكلية » ، أراد فيه أن يرد على بحث لنا في مشروع مكافحة الأمية درسناه من وجهـة النظر العلمية البحتة ، ونشرته جريدة القطم في العدد ١٧٢٥٤ ولم أشأ يومها أن أتولى الرد بنفسي على ما كتب الدكتور مندور مكتفياً في ذلك بما كتبه زملاء أفاضل ، هذا فضلا عن حرصي الشديد على أن لا يخرج الموضوع من مجاله العلمي إلى المجال السياسي . ولئن كان مشروع مكافحة الأمية كما وضعته وزارة الشئون الاجتماعية ، قد حظي بموافقة الغالبية الكبرى من الكتاب ، فإن معارضتنا له لم تخرج عن كونها دراسة علمية منزهة للمشروع ، كما ذكرت جريدة الجورنال ديجيبت في عددها الصادر بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٤ بعنوان « مكافحة الأمية ، هل تأتي بثمارها ؟ »[1] .

ولقد طلب إليّ الكثيرون ، وقد توليت بمفردي معارضة مشروع مكافحة الأمية بصورته الحالية ، أن أعود إلى الكتابة في هذا الموضوع الخطير ، ولا سيما وأن الاهتمام به الآن كبير .

يتلخص ما ذهبت إليه في بحثي ، في هـذا السؤال « هل التعليم سبيل إلى الحضارة ، أم أن الحضارة سبيل إلى التعليم ؟ » .

هل المدرسة هي التي تتقدم بالمجتمع وتلبسه ثوب الحضارة الحديثة ، أم أن المدرسة ظاهرة من ظواهر الحضارة ، ووسيلة مبتدعة من وسائلها تتأصل بواسطتها جذورها وتمتد فروعها ؟

إن دراسة التاريخ ، وهو معمل علم الاجتماع ، تدلنا على أن المدرسة في تاريخ الحضارات تأتي متأخرة بعد أن تكون الأذهان قد تهيأت لها ، وبعد أن تكون الشعوب قد نالت من المدنية حظاً ؛ لم تكن المدرسة في يوم من الأيام وسيلة من وسائل التحول الحضاري في شعب متأخر ، ولم يكن قبس العلم في عصر من العصور نوراً هادياً لشعب لم ينل حظاً من الحضارة والمدنية . وهذه فرنسا أم المدنيات كما يقال في العصر الحديث ، هل كان مونتسكيو وفولتير وجان جاك روسـو هم الذين خلقوا الثورة الفرنسية — ثورة الحضارة الحديثة — بتعاليمهم ومبادئهم ؟ . إن هذه التعاليم والمبادئ لم تكن في الواقع إلا تفسيراً لمعان كامنة في الشعب الفرنسي الثائر . لم تكن الثورة الفرنسية لتولد ولا كان للتعاليم الحديثة من يرجع صداها ، إذا لم يكن الشعب الفرنسي قد تنبه بعد إلى معاني الحق وارتقى وعيه الجمعي .

ولكن لماذا نذهب بعيداً ، وأمامنا التاريخ المصري الحافل؟ عند ما أراد مساكن الجنان محمد علي أن ينشيء المدارس ويعد المتعلمين ، هل تراه قد صادف في عصره نجاحاً ملحوظاً ، وهو الذي ابتدع في وسائل الترغيب للتعليم ما ابتدع ، فكان يدفع للتلميذ راتباً شهرياً ويتكفل بكل نفقاته ؟ ... لقد كان هرب التلاميذ من المدرسة هروب الرجال من الجندية . وأما الآن وقد بلغ الوعي الجمعي في المدنية المصرية ما بلغ ، فإن الشكوى لترتفع طالبة زيادة المدارس ، فلا تفرض المدرسة فرضاً « وإنما ترجى رجاء » .

وذلك هو الوضع الحقيقي للمشكلة . ليست المدرسة هي التي تتقدم بالمجتمع وإنما المدرسة ظاهرة من ظواهر المجتمع المتقدم

وما هو المجتمع المتقـدم ؟ ... إنه ذلك المجتمع الذي يهيئ بنفسه وسائل نموه الحضاري ، هو ذلك المجتمع الذي إذا فتحت فيه مدرسة لم تكن فرضاً عليه بل تكون تحقيقاً لرغباته وطلباته ، وإذا نودي فيه بالإصلاح ، لم يكن نداء أجوف بلا صدى ، بل يكون فيه المنادي لسان من ينادي ...

وليس الفلاح المصري أمياً لأنه محروم من مدرسة ومن مدرسين ، أولأنه يعوزه القانون الشديد ليخرجه من حيز الجهالة ، بل هو أمي لأنه لم يبلغ بعد في حضارته الدرجة التي يكون فيها عقله مهيأ لقبول العلم . واليوم الذي يبلغ فيه الفلاح المصري هذه

(١) La lutte contre Pánalphabetisme portera-t-elle ses fruits

الدرجة لن يعوزه قانون يمهد أو سلطة تهدد ، بل يندفع إلى طلب العلم من تلقاء نفسه .

أما والفلاح المصرى لم يبلغ بعد الدرجة التى يكون فيها عقله مهيأ للعلم بدليل إخفاق التعليم الالزامى الإخفاق الذريع على رغم ما يكلفه من مئات الألوف من الجنيهات ، فإن القانون سيخفق والمدرسة ستغلق وتلك الأمانى المراض لن تتحقق .

إن الأمية فى الفلاح المصرى ظاهرة طبيعية تتحول مع التحول الطبيعى للفلاح ، وتظهر أو تنمحى تبعاً لما يبلغه الفلاح من الارتقاء فى سلم الحضارة . وليس فى الإمكان أن يقضى قانون وضعى على قانون طبيعى . وليس فى الإمكان أن يقضى قانون مكافحة الأمية الوضعى على قانون الأمية الطبيعى اللازم لحالة الفلاح الحضارية .

إن رسالتنا هى أن نبلغ بفلاحنا ذروة الرقى ، وأن نجعل بين القرية والمدنية تكاملا من حيث درجة الحضارة ، ولن يكون هذا بفتح المدارس وإعداد المدرسين بل بالاتجاه إلى الفلاح نفسه ، فإن المدرسة ظاهرة من ظواهر ارتقائه فحسب .

علينا أن نبذر بذور الحضارة فى الفلاح المصرى ، بأن نعجل من قوانين نموه الطبيعية . إن للمجتمعات فى نموها قوانين ليس فى طاقة الفرد أن يثيرها ، وإنما فى طاقته أن يتدبرها ويعجل من مراحلها ، فهى أشبه شىء بقوانين نمو الأفراد ، ليس فى طاقة أحد أن يثب بالطفل إلى مرحلة الرجولة دون أن يمر بأدواره الطبيعية . والذين ظنوا أن فى قدرة الفرد أن يخلق ويبدع فى المجتمع مخطئون ، فإن دور الفرد أو دور المصلح فى الحياة الاجتماعية دور ثانوى لا يعدو أن يكون تدبراً وتوجيهاً .

كل ما نملك إذاً هو أن ندرس الفلاح وأن نتدبر قوانين نموه ثم ندفع به إلى الأمام فى طريقه الطبيعى .

والواقع أن الفلاح المصرى يتقدم ببطء ، إذا قارناه بأمثاله فى ممالك أوربا وذلك يرجع إلى عاملين :

١ — العامل الاقتصادى .

٢ — العامل التكوينى .

والواقع أن العامل الاقتصادى فى رأينا نتيجة للعامل التكوينى ، لأننا نميل إلى القول بأن الحياة الاقتصادية من خلق الانسان ، وليس كما يقول كارل ماركس أن الإنسان من خلق الحياة الاقتصادية فى تطوره الحضارى .

لقد اصطلح علماء الاجتماع على تقسيم عقليات المجتمعات إلى نوعين : النوع الأول يعرف بالعقلية السحرية ، والنوع الثانى يعرف بالعقلية الوضعية ؛ والنوع الأول من العقليات سمة الشعوب المتأخرة ، والنوع الثانى سمة الشعوب المتحضرة . ولا بد لكل مجتمع من أن يمر أولا بالمرحلة السحرية وأدوارها ، ثم ينتهى إلى المرحلة الوضعية .

أما المرحلة السحرية فى المجتمعات فتتميز بتفشى المعتقدات الشعبية وعدم التميز الواضح بين سبب ومسبب حتى تكاد الظواهر كلها تختلط وتنسب إلى قوى غامضة ومجهولة . والارتباط المنطقى يكاد أن يكون معدوماً فى عقول الناس فى هذه المرحلة ، فالمرض يرجع إلى قوة غامضة قد تكون الزار فى أغلب الأحايين وما إلى ذلك مما يدل على تفكك الرابطة المنطقية فى العقول ، أما المرحلة الوضعية فعكس ذلك تماماً ...

وواضح من هذا أن الفلاح المصرى لا يزال فى المرحلة السحرية ، وعلينا إذا أردنا له تقدماً أن نعجل مرحلة الانتقال من الحالة السحرية إلى الحالة الوضعية .

ذلك هو العامل التكوينى ، فعلينا إذاً أن نعمل على أن يبلغ فلاحنا المرحلة الوضعية بكل ما أوتينا من مجهود ، فذلك هو السبيل المنشود ...

ودراسة التاريخ تدلنا على أنه حينما وجدت الآلة انبثقت الحضارة ، ذلك لأن للآلة أثرها فى عقلية من يمارسها ، إنها تطبع العقل بالطابع الوضعى ، طابع القانون الذى يربط بين سبب ومسبب ... فالآلة تدور ، ولكنها تدور وفق نظام متماسك لا يلبس أن يتكيف به عقل من يمارسها ، ومن هنا لا تكون رسالة الآلة رسالة إنتاج بقدر ما هى رسالة عقليات وحضارات .

تدور الآلة ، فلا يلبث التفكير المفكك أن يتماسك ، ذلك لأن من طبيعة الانسان أن يدرك بالفكر ما يعمل باليد والآلة تقتضى نظاماً وقانوناً يلمسه عامل الآلة باليد ويشاهده بالعين فلا

يلبث طويلا حتى يدركه بالفكر ، ويصبح القانون والنظام من طبيعة تفكيره ؛ لقد سبق الانسان العامل (Homo Faber) الانسان المفكر (Homo Sapiens) فى أدوار التاريخ كلها ، وما الصيغ والرموز التى يصطنعها الفكر فى الواقع إلا تجريدات لوقائع ملموسة باليد ومشاهدة بالعين .

نحن إذاً ننشد العقلية الوضعية كخطوة أولى من خطوات الإصلاح ، وليس من سبيل إلى تحقيق هذا غير الآلة . ولسنا نعنى بذلك أوضاع الصناعات الضخمة والآلات العظيمة مما قد لا يتيسر لنا الآن ، وإنما نعنى من الآلة صغرت أو كبرت كمعنى النظام والترابط والقانون . وإن فى قدرة الصناعات الزراعية البسيطة تحقيق ما نرجوه ، وهذه الدانمارك ، تلك البلاد الصغيرة لقد حققت حضارة عظيمة تعد من أرقى الحضارات الأوربية على أساس هذه الصناعات الزراعية البسيطة .

كأن مشروع مكافحة الأمية مصيره الاخفاق لأن الأرض لم تعد ولم تمهَّد بعد . وإنما السبيل إلى تحقيق هذا المشروع هو إيجاد العقلية الوضعية ، عقلية الحضارة والمدنية التى تلتمس سبل التقدم فى مجال العلم .

والذى يدلنا دلالة قاطعة على أن الصناعات تهىء العقل الجمعى لطلب العلم والاستزادة منه ذلك الاحصاء الذى يدلنا على أنه فى سنة ١٥٠٠ م لم يكن أكثر من ١٠ ٪ من شعوب أوربا الغربية حاصلين على قدر من الثقافة . وفى سنة ١٧٠٠ م ارتفعت النسبة قليلا حتى إذا جاءت سنة ١٨٠٠ م ، وظهرت المنتجات الصناعية فى أوربا بلغت نسبة المتعلمين نحو ٧٥ ٪ ؛ أى أنه فى أقل من قرن واحد ارتفعت النسبة بمقدار ٦٥٪ (١) .

وبمقابلة بعض البلدان الصناعية بغير الصناعية يتضح مقام نصيب الصناعة فى تهيئة الشعب لقبول التعليم نتيجة للعقلية الوضعية .

ففى كل من المملكة المتحدة (بريطانيا) وألمانيا واليابان لايوجد غير ١٪ لا يعرفون القراءة والكتابة . وفى أمريكا ٦٪ وفرنسا ٨ ٪ وبلجيكا ٩ ٪ وجميعها من البلدان الصناعية .

أما فى البلدان التى لم تتقدم فيها الصناعة فالأمر يختلف عن ذلك . ففى أسبانيا ٥٤ ٪ وفى الهند ٩٠ ٪ (١) الخ .

من كل ما تقدم نستطيع أن نستخلص ما يلى :

١ — أن الحضارة تولد قبل أن يولد التعليم وما التعليم فى الواقع إلا أداة للحضارة تستغلها لاطراد نموها وسموها .

٢ — من أكبر العوامل التى تلد الحضارة نشر الصناعة وظهور المنتجات الصناعية لما يستتبع ذلك من تكييف عقلية الشعب بالقالب الوضعى الحضارى .

٣ — الظواهر الاجتماعية وفيها ظاهرة الأمية لا يمكن القضاء عليها بقانون لأن لها مراحلها الخاصة وعواملها الخاصة .

ليس إذاً لب المشكلة فى أمية الفلاح ، وإنما فى حالة الفلاح العقلية ونصيبها من قبول العلم .

فؤاد عوضه واصف

ليسانسيه فى العلوم الفلسفية

(١) Changing culture and changing governments : H . Rugg

(١) Ibid

صدر حديثا :

دور القرآن فى دمشق

لمؤرخ دمشق ، قاضى القضاة ، النعيمى المتوفى سنة ٩٢٧ هـ

عارضه بأربع نسخ وعلّق عليه وذيّله

صلاح الدين المنجد

مقدمة واسعة فى نشأة المدارس فى الإسلام

خمسة ملاحق تاريخية آثاريه — ثلاثة عشر فهرساً

ثمنه ١٥ قرشاً عدا البريد

يطلب من مكتبة عبيد إخوان بدمشق